أدب الحجّ في الحجاز و الجزيرة العربية

(من العصر الجاهلي وحتى نهاية العصر الأُموي « ١٣٢ هـ»)

د. ابراهيم بن عبد العزيز الجميح

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة إلقاء الضوء على أدب الحج في الحجاز والجزيرة العربية عموماً في الفترة من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأُموي (١٣٢ هـ). ويشمل أدب الحج في هذه الدراسة الشعر والأمثال والخطب.

وقد قسّمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام، يتناول القسم الأوّل تعريف معنى الحج في اللغة والدين. ويوضّح القسم الثاني أدب الحج في الشعر الجاهلي، والنثر كالأمثال والخطب. أمّا القسم الثالث فيركّز على أدب الحج في العصر الإسلامي من ظهور الإسلام وحتى نهاية العصر الأُموي، ويشمل الشعر والخطب، وما ظهر في الحياة العلمية في مواسم الحج في العصر الأُموي من نثر ديني تمثّل في تفسير القرآن والسنّة النبويّة والفتوى في أحكام الحج والعمرة.

١ ـ الحجّ في اللغة والدين:

يُقصد بأدب الحج في هذه الدراسة ما صنّف وأُلّف عن الحج سواء كان ذلك شعراً أو نثراً. ويشمل الشعر الجاهلي والإسلامي والخطب والأمثال. وهو يُعبّر عن خواطر الأُدباء وقرائح الشعراء في الحجاز والجزيرة العربية عموماً.

وللحج مفهوم في اللغة العربية والدين الإسلامي، فما هو معنى الحج لغةً وديناً؟

إنّ الحج في اللغة هو القصد، يُقال: حجّ فلان أي قدم وحجّه يحجّه حجّاً: أي قصده. وحججت فلاناً في قصدته. ورجل محجوج أي مقصود. وقد حجّ بنو فلان فلاناً إذا أطالوا الاختلاف إليه، وفي هذا المعنى يقول الشاعر الجاهلي:

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة يحجّون سب الزبرقان المزعفرا

والمعنى هنا أي يقصدونه ويزورنه.

ثمّ أصبح الحجّ في العُرف يعني القصد إلى مكّة للنسك والحج إلى البيت الحرام خاصة[١]. وجمع الحج: حُجّاج وحجيج، ويجمع أيضاً على حُج بالضم وحِج بالكسر. يقول الشاعر:

كأنّما أصواتها بالوادي أصوات حجٍ من عُمان عادي

والمُفرد: حاج، والمفردة: حاجّة وجمعها حواج[٢].

وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة وهي وقت الحج. يقول تعالىٰ: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[٣].

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، التي يتحقّق بها استسلام العبد

(١) أُنظر: محمّد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، د. ت، ٢: ٢٢٦.

(٢) محمّد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ت. محمود خاطر، القاهرة: دار المعارف، د. ت: ١٢٢ ـ ١٢٣. ابن منظور، لسان ٢: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) البقرة: ١٩٧.

وخضوعه لربّه تعالى، وهو جامع لما تضمنته الأركان الأُخرى، فهو عبادة بدنية كالصلاة والصيام، وعبادة ماليّة يشبه الزكاة؛ لما يتطلبه من الإنفاق في سبيل الله، وهو أيضاً مجاهدة للنفس والبدن.

والحج في اصطلاح الفقهاء: قصد البيت الحرام؛ لأداء الأفعال المفروضة من الطواف بالكعبة والوقوف بعرفة محرماً بنيّة الحج(١).

وقد عرف العرب الحج قبل الإسلام، منذ أن أمر الله عزّوجل نبيّه إبراهيم عليه السلام بأن يشرعه للناس، وكانت العرب قبل الإسلام تحج البيت على دين إبراهيم عليه السلام، فتلبّي تلبية الحج وتطوف البيت وتسعى وتقف بعرفة، وتؤدي جميع مناسك الحج من المبيت بمزدلفة ورمي الجمار والنحر وتعظيم الأشهر الحرم(٢).

ثمّ حرّف العرب قبل الإسلام شريعة إبراهيم عليه السلام، فعبدوا الأصنام، وطاف بعضهم حول البيت عرايا(٣)، إلى أن جاء الإسلام، وفُرض الحج، فتغيّر مفهوم الحج وما كان عليه العرب قبل الإسلام.

وقد ورد ذكر الحج وما يتفرّع من لفظه في القرآن الكريم اثنتي عشرة مرّة منها ثماني مرّات في سورة البقرة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾(٤).

وجاء ذكر الحج في سورة «آل عمران» في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ**

(١) نور الدين عتر، الحج والعمرة في الفقه الإسلامي، حلب: المكتبة العربية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م: ٧ـ٨.

(٢) أُنظر: محمّد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، ت. رشدي الصالح ملحي، ط ٣، مكّة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ١: ٦٦ـ ٧٤. وأُنظر: أحمد بن جعفر بن وهب اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ١: ٢٥٤ـ ٢٥٥.

(٣) اليعقوبي، تاريخ ١: ٢٥٤ـ ٢٥٧.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٥٨.

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(١).

وذكر الحج في سورة «التوبة» في موضعين، ومنهما قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(٢).

وورد لفظ الحج في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٣).

وتحتوي الآيات القرآنية عن الحج على معانٍ أدبية عظيمة عن الحج، تشمل شعائر الحج كالصفا والمروة والطواف والأهلّة، والهدي، والمسجد الحرام، والبيت المطهّر، وحرمات الله، والشعائر المقدّسة، والمناسك وغيرها من معاني الحج ومناسكه وشعائره.

وتحتوي آيات الحج أيضاً على معانٍ كبيرة عن آداب الحج، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج. كما تصوّر آيات الحج الحُجاج، الذين يقدمون خاشعين من كلّ فجّ؛ ليشهدوا منافع لهم في الحج، وغيرها من الصور البيانيّة عن هذه الفريضة: الركن الخامس من أركان الإسلام.

وتحتوي كتب التفسير، كجامع البيان في تفسير القرآن للطبري، والكشّاف للزمخشري، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير القرآن الكريم لابن كثير وغيرهما من كتب التفسير على أدب نثري يوضّح آيات الحج، ويفسّرها في صور بيانية نثرية راقية تربط نزول الآية بأسبابها ومكان نزولها. وما زالت تلك الصور البيانيّة عن الحج في كتب التفسير معيناً لمن أراد فهم هذه الفريضة؛ الركن الخامس من الإسلام.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣.

(٣) سورة الحج: الآية ٢٧.

٢ ـ الحجّ في الأدب الجاهلي في الحجاز والجزيرة العربية:

ارتبط تاريخ اللغة العربية بتاريخ مكّة المكرّمة منذ أن بنى إبراهيم عليه السلام الكعبة (البيت الحرام) في الوادي المبارك بمكّة المكرّمة، فنشأت اللغة العربية العدنانيّة نسبة إلى عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ولم تنشأ هذه اللغة مصادفة، بل لقد كان للحج دور في تكوينها وتطويرها وتحسينها، متفاعلاً في ذلك مع الأسواق العربية التجاريّة والأدبية التي تقام في مواسم الحج، في عكاظ ومجنة وذي المجاز وغيرها من الأسواق العربية[١]، التي كانت تُقام قريباً من مكّة المكرّمة وفي الطريق إلى الحج أو في الطريق من الحج، حيث يظل الحج أيضاً عاملاً هاماً في هذه الأسواق، وفي كل ما جلبته من الخير على اللغة العربية، فقد كانت تفعل فعلها البطيء في تجميع العرب وتقريب مجتمعاتهم، فكانت تعتبر إرهاصاً ببوادر الدعوة النبويّة على يد الرسول محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله[٢].

وكانت أكثر هذه الأسواق حولية تُقام في أيام معلومات في كلّ عام، وكانت ميداناً لغير البيع والشراء والتجارة؛ فقد كان فيها تناشد الأشعار، وكان فيها تفاخر وتأثّر، وتنافر ومقارعة ومعاظمة، فيفوز في هذا أقوام ويخسر آخرون، وتحتفل العرب لها الاحتفال اللائق بها، وكان لهم حكّام معلومون يفضّون المشاكل بين القبائل، ولهم محكّمون يحتكم إليهم الناس في مناظراتهم وأشعارهم، كما لهم في هذه الأسواق خطباء[٣].

---

(١) حول أسواق العرب في الجاهلية، أُنظر: سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، القاهرة: دار الكتب الإسلامي، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م: ١٩٣ ـ ٣٥٩.

(٢) أُنظر: عبد العزيز الرفاعي، الحج في الأدب العربي، بحوث المؤتمر الأوّل للأُدباء السعوديين، جامعة الملك عبد العزيز، جدة: شركة المدينة للطباعة والنشر، د.ت. ٣: ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨. وأُنظر أيضاً: الرفاعي، الحج في الأدب العربي، ط ٢، المدينة المنوّرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م: ١٥ ـ ١٨.

(٣) الأفغاني: أسواق العرب: ٢٠٥.

والواقع، أنّ الاختلاط القائم بين القبائل العربية في أسواق الحج الموسمية، أثّر في اللغة والدين والعادات، فقد ترتب على قيام قريش على هذه الأسواق لأعوام طويلة قبل البعثة النبوية، أن تتبوّأ في اللغة المكان الأعلى؛ لأنّ لغات القبائل عامّة من اليمن وعُمان والشام والعراق ونجد وتهامة، تطرق مسامع قريش على الدوام، فتختار منها ما يحسن، وتنفي ما يقبح، وقد كانت على هذا الاصطفاء اللغوي زمناً كافياً حتى خلصت لها هذه اللغة الممتازة، وتهيأت لينزل بها القرآن الكريم على أفصح وجه وأبلغه وأتمّه كمالاً وسلاسةً وجمالاً[١].

وكان الشعراء الذين ينظمون الشعر؛ لينشدوه بعكاظ وغيرها من الأسواق في الجزيرة العربية، يتوخون اللغة المجمع على فصاحتها، والتي صار لها النفوذ والشيوع، فكانت لهجة قريش هي اللهجة الرسمية بين لهجات الجزيرة العربية كلّها[٢].

كما أثّرت هذه الأسواق التي تُقام في مواسم الحج في التبادل اللغوي، وفي العادات بين أبناء القبائل العربية في الجزيرة العربية، ذلك أنّ أي اختلاط بين فريقين لابدّ أن ينتهي بأثر في كلّ منهما، فاليمني يأخذ شيئاً من أخلاق الحجازي، والنجدي يحمل ألواناً من عادات العُماني وهلّم جرا[٣].

وبالإضافة إلى الأدب المُتمثّل في الشعر والنثر، والعادات، لعبت الأسواق العربية التي تُقام في مواسم الحج، دوراً كبيراً في الدين لقيام جميع تلك القبائل بمناسك واحدة يؤمّهم فيها قريش أهل الحرم[٤].

---

(١) الأفغاني، أسواق العرب: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٧.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠٧.

● **الحج في الشعر الجاهلي:**

كان للحج وما يتّصل به من مشاعر، ومواطن، ومعان، مكانة رفيعة في شعر قريش، فهي إنّما تصدر في ذلك عن طبيعة بيئتها، فلقد كان في مكّة البيت الحرام، والمشاعر المقدّسة، ولقريش تبعة حماية الكعبة وحرماتها والسقاية والرفادة، وكان كلّ ذلك مصدر اعتزاز قريش.

وكانت قريش في أشعارها تفتخر بمكانتها من البيت وتعتزّ بحمايته وخدمته، وكذلك فعلت قبيلة جرهم من قبل، التي تحسّرت حينما فقدت هذه المكانة، يقول شاعرهم فضاض بن عمرو بن الحارث الجُرهمي:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكّة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا صروف الليالي والجدود العواثر
وكنّا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فسحّت دموع العين تبكي لبلدة بها حرم آمن وفيها المشاعر
وتبكي لبيت ليس يوذى حمامُه يظلّ به أمناً وفيه العصافر[1]

والواقع أنّ شعر قريش قد خلّد مسميات الأماكن المقدسة، في المشاعر المقدسة وبعض الأماكن والمنازل، مما يحيط بمكّة المُكرّمة أو يقرب منها، كما خلّد الشُعراء الآخرون المنازل التي تقع في طريق الحج وتتصل به.

ففي المشاعر المقدّسة كان صفوان بن جناب بن شجنة بن عطارد بن سعد بن

(١) أُنظر: أبو محمّد عبد الملك بن هشام، السيرة النبويّة، ت. مصطفى السقا وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت ١: ١٢٠ ـ ١٢١، وأُنظر: عبد الله بن محمّد اسحاق الفاكهي، أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه، ت. عبدالملك بن دهيش، ط ٢، بيروت: دار خضر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ٣: ١٤٣.

زيد بن مناة بن تميم، هو الذي يجيز للناس بالحج من عرفة، وفي ذلك يقول أوس ابن تميم السعدي:

لا يبرح الناس ما حجّوا مُعرفهم حتى يُقال أجيزوا آل صفوانا[١]

وفي مكّة أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحجيج بعد حفره لبئر زمزم. يروي ابن اسحاق أنّه قيل لعبد المطلب بن هشام حين أمر بحفر زمزم:

ثمّ أدعُ بالماء الروي غير الكدر يَسقي حجيج الله في كل تبَر
ليس يخاف منه شيء ما عَمرَ[٢]

ويمدح الشاعر مسافر بن أبي عمرو بن أُميّة بن عبد شمس، عبد المطلب بن هشام؛ لسقايته ورفادته وحفره زمزم، فيقول:

فأي مناقب الخيرات لم تشدد به عضدا
ألم تسق الحجيج وتنحر المدلابه الرفدا
وزمزم من أرومته وتملأ عين من حسدا[٣]

وقال حذيفة بن غانم عن سقاية عبد المطلب بن هاشم، وهي أبيات من قصيدة يرثيه بعد وفاته:

وساقي الحجيج ثمّ للخير هاشم وعبد مناف ذلك السيّد الفهري
طوى زمزماً عند المقام فأصبحت سقاية فخراً على كل ذي فخر[٤]

(١) ابن هشام، السيرة ١: ١٢٧.
(٢) ابن هشام، السيرة ١: ١٥٣، الفاكهي، أخبار مكّة ٢: ١٨.
(٣) الأزرقي، أخبار، مكة ٢: ٤٧.
(٤) ابن هشام، السيرة ١: ١٥٩، ١٨٥.

وعند ظهور دعوة الرسول ﷺ، خاف عمّه أبو طالب أن تلحق قريش والعرب به وبقومه الأذى، فقال قصيدته التي تعوّذ فيها بحُرمة مكّة، رافضاً أن يسلّم رسول الله ﷺ حتى يهلك دونه، ولعلّ هذه القصيدة أجمع قصيدة في العصر الجاهلي ضمت ذكر مشاعر مكّة قبل الإسلام وهي القصيدة اللاميّة الطويلة التي أوردها ابن هشام في السيرة النبويّة، واحتوت على ذكر البيت والحجر الأسود والصفا والمروة وحجّاج البيت والمشاعر، كعرفة والمزدلفة ومنى والجمرة الكُبرى. ومن أبياتها ما يلي:

ولمّا رأيت القوم لأود فيهم وقد قطعوا كلّ العُرى والوسائل

ثمّ يأخذ في تعداد معالم مكّة ومشاعرها متعوذاً بربّ الناس قائلاً:

أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن
علينا بسوء أو مُلحّ باطلِ
وبالبيت، حق البيت، من بطن مكّة
وبالله إنّ الله ليس بغافل
وبالحجر المُسود إذ يمسحونه
إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطي إبراهيم في الصخر رطبه
على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا
وما فيهما من صورة وتماثل
ومن حجّ بيت الله من كل راكب
ومن كل ذي نذر ومن كل راجل

وبالمشعر الأقصى [المزدلفة] والمنازل من منى
وهل فوقها من حُرمة ومنازل
وبالجمرة الكُبرى إذا صمدوا لها
يؤمون قذفاً رأسها بالجنادل(١)

وذكر الشُعراء الجاهليون الحج في أشعارهم، وذلك لقدومهم لمكّة، ولارتيادهم مناطق الحجّ حيث المُلتقى الأدبي في عكاظ وغيره من أسواق العرب، وكانت الآمال تداعب مشاهيرهم؛ ليأخذ شعرهم طريقه إلى جوف الكعبة ويصبح من المعلقات.

ومن الشُعراء الجاهليين الذين عنوا بذكر الحج وما يتّصل به من مشاهد، الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني، وينسب إلى قبيلة ذُبيان الغطفانية القيسية، وتسكن شرق الجزيرة العربية. فهو في قصيدة له يعتذر للنعمان بن المُنذر ويستعطفه حالفاً بمن أمن الطير في الحرم تمرّ به ركبان مكّة:

والمؤمين العائذات السير تمسحها
رُكبان مكّة بين الغيل والسعد(٢)

وهو يكرر هذا الحلف في اعتذاره أيضاً للنعمان بن المُنذر، وهي من بديع اعتذاراته حيث يقول:

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمنَ ذو أمةٍ وهو طائع
بمصطبحات من لصاف وثبرة يزرن إلالاً، سيرهن التدافع

(١) ابن هشام، السيرة ١: ٢٩١ ـ ٢٩٣.
(٢) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ط ٥، القاهرة، دار المعارف، د.ت: ٢٨٦.

عـليهم شـعث عـامدون لحـجّتهم فـهم كأطـراف الحَـنِيَّ خـواضـع[١]

والنابغة هنا، يحلف بالنوق التي تجد في سيرها وتقطع الفِيافي إلى الحج، تتدافع مدافعة، وقد أضمرها طول السير، وعلى الإبل أُناس شعث مـغبرون يـقصدون الحج.

وتشتمل قصيدة أُخرى للنابغة الذبياني، على أبيات عديدة يُذكر فيها وصف رحلة الحج التي قام بها، ويذكر المواضع التي مرّ بها، ويعتذر لصـاحبته؛ لأنّـه في رحلة مقدّسة لا يحل له فيها لهو النساء، فهو عزم على الدين أو الحج، في ركب من إبل يرجون البرّ والمعروف، ويقول في قصيدته: إنّ إبله باتت ثلاث ليالي التشريق، ونفرت في الرابعة إلى سوق ذي المجاز. تلتمس لها طريقاً في الزحام، والأبيات هي كالتالي:

قـالت: أراك أخـا رحـل و راحـلة تـغشى مـتالف لن يـنظرنك الهـرما
حـيـاكِ وُدّ: فـانا لا يـحل لنـا لهـو النسـاء وإن الديـن قـد عـزما
مشـمرين عـلى خـوص مـزممة نرجـو الإله ونـرجـو البـرّ والطـعما

ويقول عن إبله:

باتت ثـلاث مـنى مـن ثـم واحـدة بذي المجاز تراعـي مـنزلا زيـما[٢]

ويقسم الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى، وهو من قبيلة مُزينة التي تنزل بنجد شرقي المدينة، بالبيت، في معلقته، ويذكر الطواف حوله مُشيراً إلى قـريش وجرهم الذين بنوه، فيقول:

(١) ضيف، العصر الجاهلي: ٢٨٩.
(٢) الرفاعي، الحج في الأدب العربي: ٢٨ ـ ٣٠.

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بَنَوهُ من قريش وجرهم[١]

ويُشير الشاعر عمرو بن كلثوم، في معلقته إلى الأبطح بمكّة، ويفخر بقومه إذا ضرب العرب خيامهم بالابطح بمكّة فيقول:

وقد عَلِمَ القبائل من قَصَدَ إذا قُببٌ بأبطحها بُنينا[٢]

أمّا الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة العامري من قبيلة عامر بشرق الجزيرة، فيذكر في معلقته منى، والأشهر الحرم، فيقول:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها
دمنٌ تجرم بعد عهد أنيسها حجّج خَلون حلالها وحرامها

فهو هنا، يذكر توحّش الديار بمنى بعد عهد الذين يسكنون بها، وحلالها وهي الشهور الحل، وهي ثمانية أشهر، وحرامها وهي الشهور الحرم، وهي أربعة أشهر، رجب وذو القعدة وذو الحجّة والمحرم[٣]

أمّا الشاعر الجاهلي امرؤ القيس بن حجر وهو من قبيلة كندة اليمنية، فهو يحزن لفراق مكّة والمُحصب، فيقول:

فلله عينا من رأى من تفرق أشتّ، وأنأى من فراق المُحصبِ[٤]

ويذكر الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم، وهو من الأوس بيثرب، في شعره

(١) محمّد بن القاسم الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ت.عبد السلام محمّد هارون، القاهرة، ١٩٦٣: دار المعارف: ٢٥٣.
(٢) الأنباري، شرح القصائد السبع: ٤١٧.
(٣) الأنباري، شرح القصائد السبع: ٥١٧ ـ ٥٢١.
(٤) الفاكهي، أخبار مكّة ٤: ٧٧.

منى ، فيقول :

ديـار التـي كـانت ونـحن عـلى مـنى تـــحل بـــنا نـــجاء الركـــائب
تـراءت لنـا كـالشمس تـحت غـمامة بـدا حـاجب مـنها وضـنت بـحاجب
ولم أرهـــا إلّا ثـــلاثاً عـــلى مـــنى وعـــهدي بـــها عـذراء ذات ذوائب[١]

وبالإضافة إلى الشعر الجاهلي ، وما يحتويه من مشاهد عـن الحـج والبـيت الحرام وحرمته ، والمشاعر في الحج كمنى وعرفات والمزدلفة ، احتوى أيضاً النـثر الجاهلي في الخطب والأمثال على العديد من معاني الحج ومشاهده .

● الحج في النثر الجاهلي:

كان للحج تأثير في الأدب النثري عند العرب قبل الإسلام ، وتمثّل ذلك في الخطابة والأمثال . وكانت مكّة والمشاعر المقدسة تنعكس في النثر الأدبي .

وتُعبّر بعض الخطب في العصر الجاهلي عن ديـن العـرب والأشهـر الحـرم والبيت المحجوج ، فعندما قدم النعمان بن المُنذر على كسرى خطب خطبة عدّد فيها مناقب العرب ، وذكر دينهم وشريعتهم ومما قاله : «وأمّا دينها وشريعتها ، فـإنّهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم نسكه بدينه ، أنّ لهم أشهراً حرماً ، وبلدة مُحرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبـائحهم ، فـيلق الرجـل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره ، وإدراك رَغمه منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى»[٢] .

وافتخر خطباء بني هاشم في مكّة بحرمة البيت وزوّاره . فكـان هـاشم بـن

(١) محمّد بن سلام الجمحي ، طبقات الشُعراء ، بيروت : دار الكُتب العلمية ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م : ٨٩.

(٢) أحمد بن محمّد بن عبد ربّه ، العقد الفريد ، ت . محمّد محيي الدين عبد الحـميد ، ط ٣ ، بـيروت : دار الكـتب العلمية ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م . ١ : ٢٧٥ ـ ٢٧٧ .

عبد مناف يقوم أوّل نهار اليوم الأوّل من ذي الحجّة، فيسند ظهره إلى الكعبة ويخطب في قريش قائلاً: «يا معشر قريش، أنتم سادة العرب، أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً... يا معشر قريش، أنتم جيران بيت الله... واسألكم بحرمة هذا البيت ألا يُخرج رجل منكم من ماله، لكرامة زوّار بيت الله ومعونتهم إلّا طيباً،...»[١].

وعندما تولّى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمّه المطلب، وأصبح له الشرف في قومه وعظم شأنه. قام بحفر زمزم، وهي بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، التي أسقاه الله منها. وتشير بعض الروايات في سبب حفرها أنّ عبد المطلب قال: «بينما أنا نائم بالحجر إذ أتاني آتٍ... فقال: احفر زمزم، إنّك إن حَفرتها لا تندم، فقلت وما زمزم؟ قال: «تراث أبيك الأعظم، لا تنزف أبداً ولا تندم، تَسقي الحجيج الأعظم...»[٢].

وحين خطب أبو طالب في زواج الرسول صلى الله عليه وآله بالسيدة خديجة رضي الله عنها قال: «الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً...»[٣].

وبالإضافة إلى الخطب عند العرب قبل الإسلام، تحتوي كتب اللغة كلسان العرب لابن منظور وكتب الأمثال كمجمع الأمثال للميداني، على أمثال تتعلّق بالحج، حيث ذُكر الحج في أمثال العرب القديمة، فقيل: «أقبل الحاجُ والداجُ»، والحاج هم الذين يحجّون، والداج هم الذين يأتون معهم من الأجراء والمكارين والأعوان ونحوهم، وقيل هم الذين يدبّون في أثر الحاج من التجّار وغيرهم ولم

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب (العصر الجاهلي و عصر صدر الإسلام)، ط ٢، القاهرة: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ١٣٨١ هـ / ١٩٦٢م، ١: ٧٤.

(٢) ابن هشام، السيرة ١: ١٥١، صفوت، جمهرة خطب العرب ١: ١٠١ـ١٠٢.

(٣) صفوت، جمهرة خطب العرب ١: ٧٧.

يكن الحج قصدهم[١]. وفي نفس المعنى يُقال: «ما حجّ ولكنّه دج»[٢].

ومن أمثال العرب أيضاً في الحج قولهم: «لجَّ فحَجَّ»، ومن معانيه أن رجلاً خرج يطوف في البلاد، فاتفق حصوله بمكّة فحج من غير رغبة منه، فقيل: لَجّ في الطّواف حتى حج، ويضرب المثل للرجل يبلغ من لجاجته أن يخرج إلى شيء ليس من شأنه[٣]. ومن معانيه أيضاً أنّه لجّ وتمادى به لجاجه، وأداه اللجاج إلى أن يحج البيت الحرام، وقيل في معناه أيضاً: إنّه هاجَر أهله بلجاجه حتى خرج حاجاً[٤].

ومن أمثال العرب في الحج قولهم: «كارهاً حَجَّ بَيْطرُ» وبيطر اسم رجل، ويضرب هذا المثل لمن يصنع المعروف كارهاً لا رغبة له فيه[٥]. واستمرت هذه الأمثال تستعمل عند العرب بعد الإسلام، وما زال بعضها يستعمل حتى اليوم.

ومن أمثال العرب المولدة، التي أُستحدثت ولم تكن من كلامهم فيما سبق، قولهم: «أنفقت مالي وحَجَّ الجملُ» وقولهم: «من تلذَّذ الحَجَّ ضربُ الجمالِ»[٦].

٣ ـ الحج في الأدب الإسلامي في الحجاز والجزيرة العربية إلى نهاية العصر الأموي:

يحتوي أدب الحج الإسلامي في الحجاز والجزيرة العربية، سواء كان شعراً أو نثراً على العديد من الألفاظ والمعاني التي تتناول الحج والبيت الحرام، والمشاعر، كمنى وعرفة ومزدلفة والجمرات؛ وركب الحجيج، والتغزّل بالحاجات.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب ٢: ٢٢٧، ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) أحمد بن محمّد الميداني، مجمع الأمثال، ت. محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة السُنّة المحمديّة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ٢: ٢٨٥. ابن منظور، لسان العرب ٢: ٢٢٧.

(٣) الميداني، الأمثال: ١٩٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ٢: ٢٢٨.

(٥) الميداني، الأمثال ٢: ١٦٠.

(٦) المصدر نفسه ٢: ٣٢٩، ٣٥٨.

والجدير بالذكر، أن شعر الحج في عصر النبوّة والراشدين يختلف عن شعر الحج في العصر الأُموي. حيث ظهر في العصر الأُموي الشعر الذي يتغنّى بالحاجات، والذي سجّلته كتب التاريخ والأدب.

● **الحج في الشعر الإسلامي في عصر النبوّة والراشدين:**

كان الشعر في عصر الرسول ﷺ ينصبّ على الدفاع عن الرسول ﷺ ودعوة الإسلام، والردّ على مشركي قريش وشعرائهم. ولكن الحج ومشاهده مع ذلك ورد في شعر ذلك العصر بالرغم من أنّ المشركين كانوا يتولون الحج إلى العام التاسع من الهجرة (٦٣١م)، وهي أوّل حجّة في الإسلام، وقد أناب الرسول ﷺ أبا بكر أولاً ثمّ أرسل مكانه عليّ بن أبي طالب؛ ليقرأ عليهم سورة براءة[١]، التي يتبرأ فيها الرسول ﷺ ممن يحجّ من المُشركين بعد هذا العام إلى مكّة.

وبعد هجرة الرسول ﷺ واستقراره بالمدينة وظهور الدين الإسلامي، يذكر الشاعر أبو قيس صِرْمة في قصيدة له ما خصّ الله سبحانه وتعالى أهل يثرب وأكرمهم بنزول الرسول ﷺ عليهم، فيقول:

ثوى في قريش بضع عشرة حجة يذكّر لو يلقى صديقاً مواتياً
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم يرَ من يؤوي ولم يرَ داعياً
فلمّا أتانا أظهر الله دينه فأصبح مسروراً بطيبة راضياً[٢]

وخلال غزوات الرسول ﷺ لنشر الإسلام وتدعيم الدعوة الإسلامية والحفاظ على سيادتها في الجزيرة العربية، تناول بعض الشعراء انتصارات الرسول ﷺ شعراً، وذكروا فيه معاني ومشاهد عن الحج. فهذا الشاعر حسّان بن

(١) سورة التوبة، الآية ٩.
(٢) ابن هشام، السيرة ٢: ١٥٨، الأزرقي، أخبار مكّة ٢: ١٤٧ـ١٤٨.

ثابت يحلف في قصيدة له بربّ الإبل الماشية في منى بالمشعر الحرام. حيث يقول:

كــــلّا وربّ الراقــصات إلى مــنى يـقطعن عُـرض مـخارم الأطـواد[١]

وعندما قدم الوفود على الرسول ﷺ بالمدينة في العام التاسع من الهجرة، كان منهم وفد همدان، فعاهدوا الرسول ﷺ وبايعوه، فكتب لهم الرسول ﷺ كتاباً، فقال في ذلك أحدهم وهو مالك بن نَمَط أبياتاً يمدح فيها الرسول ﷺ ويحلف بربّ الإبل التي تسير في منى، حيث يقول:

حــــلفت بــربّ الراقــصات إلى مــنى
صــوادر بــالركبان مــن هــضب مَـرْددِ
بأنّ رســــــول الله فــــينا مُــــصدَّق
رسولٌ أتى من عند ذي العرش مهتدي[٢]

وبعد وفاة الرسول ﷺ قام حسّان بن ثابت يـبكي الرسـول ﷺ في قـصيدة طويلة، ومنها أبيات يذكر فيها الحرم والجمرة الكبرى، فيقول:

وأمست بــلاد الحــرم وحشـا بـقاعها لغــيبة مــا كـانت مـن الوحـي تـعهد
وبــالجمرة الكُــبرى له ثــم أوحشت ديــارٌ وعَــرصات وربــع ومــولد[٣]

وفي عهد الخُلفاء الراشدين يرد الحج على لسان الشُعراء في مناسبات عديدة. ففي عهد الخليفة عُمر بن لخطاب، يشتكي أحد الشُعراء الخليفة من بـعض الولاة فيقول:

---

(١) ابن هشام، السيرة ٣: ٢٩٨.
(٢) ابن هشام، السيرة ٤: ٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٣) ابن هشام، السيرة ٤: ٣١٧ ـ ٣١٩.

نحج إذا حجّوا ونغزوا إذا غـزوا فأنّى لهم وفر ولسنا بذي وفر[١]

ويقول الشاعر المُخضرم أُميّة بن حرثان الليثي، وكان شـيخاً كـبيراً، وكـان ولداه هاجرا إلى البصرة زمن الخليفة عمر بن الخطّاب، فقال يشتكي عمر ويطلبه أن يعيد له ابنه كلابا، ذاكراً الحج في شِعره ويقول:

سأسـتعدي عـلى الفـاروق ربـا له عـمد الحـجيج إلى بُسـاق
إذا الفـاروق لم يـرد كـلابا إلى شـيخين هـامهما زواقـي[٢]

فلمّا سمع الخليفة هذين البيتين، أرسل إلى أمـير البـصرة أن يـرد كـلابا إلى شيخيه ففعل.

● **الحج في الشعر الإسلامي في العصر الأموي:**

تطوّر الشعر وفنونه في العصر الأُمـوي (٤١ ـ ١٣٢ هـ) وازدهـرت الحـياة الأدبية في الحجاز خاصّة والجزيرة العربية عامّة. وصوّر الشعراء الحجّ ومناسكه ومشاعره في قصائدهم، وخاصّة في الشعر الغـزلي بـالنساء خـلال أداء مـناسك الحج، كالطواف ورمي الجمار وأيام مُنى.

وتحتوي كُتب الأدب ودواوين الشعر على الكثير من هذا الشعر، الذي يصوّر الحج وما يحدث فيه من مشاهد.

وقد نشأ في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة في العصر الأموي الشـعر الغـزلي وتناول في جوانبه مشاهد الحج، وكان الشاعر عمر بن أبي ربيعة المخزومي صاحب هذه المدرسة الشعرية الجديدة، تبعه في ذلك تلميذه العرجي وهو عبدالله بن عمرو

(١) يحيى الجبوري، شعر المخضرمين، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م، ص ٣٢٢. وأُنظر ايضاً: هزاع الشـمري، الخُلفاء الراشدون في الشعر العربي، ط ٢، القاهرة: مطابع التقدّم، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م: ٨٩ـ ٩٠.
(٢) ابن سلام، طبقات الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣.

ابن عثمان، الذي كان يسكن منطقة العَرْج قرب الطائف، وغيرهما من الشُعراء الذين صوّروا الحج ومشاهده في شعرهم.

وكان طبيعياً أن يتأثّر شُعراء الحجاز بعمر بن أبي ربيعة والعرجي وغيرهما بالبيئة القرشية الجديدة، والتغير الذي أصاب الحياة في الحجاز نتيجة للفتوحات الإسلامية، وإنسياب الأموال على الحجاز، والتغير الاجتماعي الذي أصاب مجتمع الحجاز نتيجة لذلك.

وقام أصحاب هذا الشعر الغزلي يصفون الحج، ويلهجون بأسماء مشاهد الحج وبعض النساء الحسناوات من الحواج، كما ذكروا أوصاف مواسم الحج والإبل والهوادج، ومشاهد الحج في عرفة ومنى والصفا والمروة والمطاف ورمي الجمرات، والإفاضة إلى آخر ما في الحج من مواقف ومشاهد[١].

ويحتوي ديوان الشاعر عمر بن أبي ربيعة على العديد من الأبيات الشعريّة التي تصف الحج، كما توجد أشعاره التي تصف الحج في العديد من كُتب الأدب.

ويتناول عمر بن أبي ربيعة في قصيدة له الحج ومشاهده، ويمتزج في هذه القصيدة الحنين إلى مكّة، ومعالم الحج، بالذكريات التي اقترنت بمواقفه الغزلية، بعد أن قضى ردحاً من الزمن باليمن، وفي هذه القصيدة يقول عمر بن أبي ربيعة:

هيهات من أُمةِ الوهاب منزلنا ... إذ حللنا بسيف البحر من عدن
واحتل أهلك «أجياداً» وليس لنا ... إلّا التذكّر أو حظ من الحزن[٢]

ويستمر عمر بن أبي ربيعة في قصيدته ذاكراً مشاهد الحج في غزله بمحبوبته فيقول:

(١) الرفاعي، الحج في الأدب العربي: ٣٤ـ٣٦.

(٢) أُنظر: علي بن الحسين الأصبهاني، كتاب الأغاني، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكُتب، القاهرة: د.ت ١: ١١١.

ما أنسى لا أنسى يوم الخيف موقفها ومـوقفي وكـلانا ثـمّ ذو شـجن
إن كنت حاولت دنيا أو ظفرت بـها فما أخذت بترك الحج مـن ثـمن[١]

وبالرغم من تغزّل عمر بن أبي ربيعة بصاحباته في الأماكن المقدّسة، إلّا أنّه كان يشعر بالتحرّج والتأثّم؛ لما يتطلبه الموقف العظيم في الحج من خشوع، يقول في إحدى قصائده:

نـظرت إليـها بـالمحصب مـن مـنى ولي نـظر لولا التـحرّج عـارمُ[٢]

وفي أبيات أُخرى يقول عمر بن أبي ربيعة:

أفسـد الحـج عـلينا نسـوة من عبد شمس كن للموسم زينا[٣]

وبالرغم من ذلك، يتمنّى عمر بن أبي ربيعة أن يتكرّر الحج على مدار السنة؛ لتعلّق قلبه بحبيبته التي يراها في منى، حيث يقول:

أيّـها الراكب الُـمجِدُّ ابـتكارا قـد قـضى مـن تـهامة الأوطـارا
مـن يكـن قـلبه صـحيحاً سـليماً فـفؤادي بـالخيف أمسـى مـعارا
ليت ذا الدهـر كـان حـتماً عـلينا كـلّ يـومين حـجّة واعـتمارا[٤]

ويتغزّل الشاعر عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة بن عبيدالله التيمي، بعد أن رأها ترمي الجمار، وكان يطوف حولها ويـتعرّض لهـا، وهـي تكـره أن يـرى وجهها، وفيها يقول:

(١) الأصبهاني، الأغاني ١: ١١١.
(٢) المصدر نفسه ١: ١٢٧، ٢٦٠.
(٣) الفاكهي، أخبار مكّة ١: ٣١٤.
(٤) الأصبهاني، الأغاني ١: ١٦٧.

فمكثن حيناً ثمّ قلن توجهت للحج، موعدها لقاء الأخشب
فلقيتها تمشي تهادي موهنا ترمي الجمار عشية في موكبِ[١]

أما الشاعر العرجي فيتغزّل بمحبوبته وهي نافرة من منى فيقول معاتباً:

عُوجي عليَّ فسلمّي جبرُ فيما الصدود و أنتم سفرُ
ما نلتقي إلّا ثلاث منى حتى يُفرق بيننا النفرُ[٢]

كما يذكر العرجي بعض النساء اللاتي يحججن ليفتن الرجال، حيث يقول:

أماطت كساء الخز عن حُر وجهها
وأدنت على الخدّين برداً مُهللاً
من اللاتي لم يحججن يبغين حسبة
ولكن ليقتلن البريء المُغفلا[٣]

وعندما تولّى الخلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) عيّن خاله محمّد ابن هشام والياً على مكّة المُكرّمة، وكتب إليه أن يحج بالناس، فهجاه العرجي بأشعار كثيرة، ومنها قوله:

كأن العام ليس بعام حج تغيّرت المواسم والشكُولِ

ومنها قوله:

ألا قل لمن أمسى بمكّة قاطناً ومن جاء من عمق و نقب المسُللِ

(١) الأصبهاني، الأغاني ١: ٢٠١.
(٢) المصدر نفسه ١٨: ٣٣٢ـ٣٣٣.
(٣) الفاكهي، أخبار مكّة ١: ٣١٤. الأصبهاني، الأغاني ١: ٤٠٤.

دعــوا الحــج لا تستهلكوا نـفقاتكم فـــما حــجُ هــذا العــام بــالمتقبلِ
وكــيف يُـزكى حـج مـن لم يكـن له إمـــامٌ لدى تــجميره غــيرُ دلدلِ[١]

ويشبب العرجي بَجيْدَاء وهي أُم محمّد بن هشام ويذكرها بمنى فيقول:

نـــــلبث حـــــولاً كـــاملاً مـــا نـــلتقي إلّا عـــلى مـــنهجِ
فــي الحــجّ إن حـجت ومـاذا مـنى وأهـــــله إن هـــي لم تُـــحجُجِ

وعندما أنشد عالم مكّة عطاء بن أبي رباح قول العرجي هذا، قال:

الخـــير والله كــلّه بــمنى وأهله حجت أو لم تُحجّ[٢]

ويذكر الشاعر عبيد الله بن قياس الرقـيات في شـعره البـيت الحـرام ومـنى والجمار وبعض طُرق الحج ومناهله في قصيدة في ديوانه يمدح فـيها مـصعب بـن الزبير ويفتخر بقريش حيث يقول:

أقــفرت بــعد عــبد شــمس كــداء فكـــــدي فـــالركنُ فـــالبطحاء
فــمنى فــالجمار مــن عــبد شـمس مـــــقفرات فـــبلدح فـــحِراءُ
فـــــالخيام التـــــي بـــعسفان فـــالجحفة مـنهم فـالقاع فـالابواءُ
قد أراهـم وفـي المـواسـم إذ يـغدون حـــــلمٌ ونـــــائلٌ وبـــــهاءُ
ليس لله حُـــــرمة مـــثل بـــيت نـــحن حـــجابه عـــليه المـــلاءُ
خـــصّه الله بـــالكرامـة فـالبادون والعـــاكـــفون فـــيه ســـواءُ[٣]

(١) الأصبهاني، الأغاني ١: ٤٠٦.
(٢) المصدر نفسه ١: ٤٠٧.
(٣) عبيد الله بن قيس الرقيات، ديوان، ت. محمّد يـوسف نـجم، بـيروت: دار صـادر ودار بـيروت، ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨م: ٨٧ـ٨٨، ٩٥.

وفي قصيدة أُخرى في ديوانه، يمدح عبيدالله بن قيس الرقيات عبدالله بن الزبير، وقد خرج إليه وافِداً في مكّة فيذكر البيت وعرفات حيث يقول:

أنت ابن مُعتلج البطاح ... كديها فكدائها
فالبيت ذي الأركان ... فالمستنَّ من بطحائها
فمحلَّ أعلاها إلى ... عرفاتِها فحرائها
أو في قريش بالعلى ... في حكمها وقضائها[1]

ولم يخل ديوان عبدالله بن قيس الرقيات من الغزل في مواسم الحج. يقول في الثرياء:

حبذاء الحجُ والثريا ومن ... بالخيف من أجْلِها ومُلقى الرحالِ
درة من عقائِل البحر بكر ... لم تنلها مثاقب اللآلِ
قطنت مكّة الحرام فشطتْ ... وَعَدَتني نوائب الأشغالِ[2]

ويتناول الشاعر عمرو بن أذينة، واسمه يحيى بن مالك بن الحارث الليثي، وهو من شعراء المدينة، في شعره البيت الحرام، وزمزم ومشاعر الحج كمنى، فيقول في أبيات:

نزلوا ثلاث مِنى بمنزل غبطةٍ ... وهم على غَرَضٍ لعمرك ماهُمُ
متجاورين بغير دار إقامة ... لو قَد أجَدّ رحيلهم لم يندموا
ولهنّ بالبيت الحرام لُبانة ... والبيتُ يعرفهنّ لو يتكلّمُ

(١) ابن قيس الرقيات، ديوان: ١١٧.
(٢) ابن قيس الرقيات، ديوان: ١١٢ـ١١٣. الأصبهاني، الأغاني ١: ٢١٣.

ولو كـان حـياً قـبلهنّ ظـعائناً حيا الحـطيم وجـوههنّ وزمـزمُ[١]

أمّا الشاعر الحجازي كثير وهو من خزاعة ويـنزل المـدينة، فـيذكر تـفرّق الحجيج من منى بعد أيّام التشريق حيث يقول:

تـفرق أهـواء الحـجيج عـلى مِـنى وصدعهم شعب النوى صُـبح رابـعِ
فـريقان: مـنهم سـالك بـطن نـخلة وآخـر مـنهم سـالك بـطن تـضرعِ
فـلم أر داراً مـثلها دار غـبطةٍ وملتقى إذا التف الحجيج بمجمعِ[٢]

وفي نفس المعنى يقول أحد الشعراء:

ولمـا قـضينا مـن مـنى كـلّ حـاجة ومسـح بـالأركان مـن هـو مـاسح
أخـذنا بأطـراف الأحـاديث بـيننا وسالت بأعـناق المـطي الأبـاطح[٣]

ويتغزّل الشاعر ذو الرمة، وهو غيلان بن عقبة بن حارثة، بخـرقاء إحـدى نساء بني عامر بن ربيعة أثناء حجّها، فيقول فيها:

تـمام الحـجّ أن تـقف المـطايا عـلى خـرقاء واضـعة اللـثامِ[٤]

أمّا الشاعر مجنون بني عامر وهو قيس بن الملوح، فقد تعلّق قلبه بليلى وهام بها، وقد حجّ به أبوه ليشفيه، وفي منى سمع صائحاً يصيح في الليل قائلاً: يا ليلى،

(١) الفاكهي، أخبار مكّة ١: ٣١٤ـ٣١٥. الأصبهاني، الأغاني ١٨: ٢١٣.
(٢) الأصبهاني، الأغاني ١٨: ٣٣٢ـ٣٣٣.
(٣) الفاكهي، أخبار مكّة ١: ٣٤٦. حيث يورد هذه الأبيات يتغنّى بها بعض الحجّاج بـعد أن أداء مـناسك الحـجّ. أُنظر ايضاً: ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بـيروت: دار صـادر، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م. ٥: ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٤) الأصبهاني، الأغاني ١٨: ٣٦ـ٣٨.

يبحث عن تائهة اسمها ليلى، فسقط مجنون ليلى مغشياً عليه، وعندما أصبح أنشد يقول:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى ... فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنّما ... أطار بليلي طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه ... وليلى بأرضٍ عنه نازحة قفر[1]

وفي قصيدة أُخرى، يقول مجنون بني عامر عن ليلى، وهي بمنى ترمي الجمار الأبيات التالية:

ولم أرَ ليلى بعد موقف ساعةٍ ... بخيف منى ترمي جِمار المحصبِ
ويُبدي الحصى منها إذا قذفت به ... من البُردِ أطراف البنان المخضبِ
فأصبحت من ليلى الغداة كناظر ... مع الصبح في أعقاب نجم مُغربِ
ألا إنّما غادرت يا أمّ مالك ... صدى أينما تذهب به الريحُ يذهبِ[2]

ويصوّر شعراء النقائض كجرير والفرزدق الكثير من معاني الحج ومشاهده في ديوانيهما. وذلك في المدح والهجاء والفخر.

فالشاعر جرير المولود باليمامة من نجد، يُشير إلى الحج ومواسمه في شعره، فيقول من قصيدة يمدح فيها الخليفة عمر بن عبد العزيز الأبيات التالية:

كم بالمواسم من شعثاء أرملة ... ومن يتم ضعيف الصوت والبصرِ
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلاً من الجن أو خبلاً من النشرِ[3]

(١) الأصبهاني، الأغاني ٢: ٢١ ـ ٢٢. الرفاعي، أدب الحج: ٤١ ـ ٤٢.
(٢) الأصبهاني، الأغاني ٢: ٣٣.
(٣) جرير بن عطية الخطفي، شرح ديوان جرير، ط ١، ت. إيليا حاوي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢: ٣٣٢ ـ ٣٣٤، الأصبهاني، الأغاني ٨: ٢٤٧.

ويمدح الشاعر جرير، خالد بن عبد الله القسري ـ وكان والياً على مكّة في عهد الخليفة الأُموي الوليد بن عبد الملك ـ، ويقول: إن أجداده كانوا يمتدحون عندما يجتمع الحجيج في مكّة، وفي أبيات من قصيدته يقول:

إذا عُدّ أيام المكارم فافتخر بآبائك الشم الطوال السواعد
يسرّك أيام المحصب ذكرهم وعند مقام الهدي ذات القلائد[١]

ويمدح جرير الوالي الأُموي الحجّاج بن يوسف الثقفي، بأنّه أمن سبل الحُجاج فلم يعد يغير عليهم اللصوص فيقول:

ولقد كسرت سنان كلّ منافق ولقد منعت حقائب الحُجاجِ[٢]

ويفخر جرير على الفرزدق، ويطلب منه أن يسأل الحُجاج عن مكانته ومكانة قبيلته فيقول:

وإذا الحجيجُ إلى المشاعر أوجفوا
فسأل كنانة وأسأل الأنصارا[٣]

ويهجو جرير الفرزدق وقومه، ويقول: إنّ الحُجاج بالمشاعر في منى وعرفة نادوا بغدرهم بعبدالله بن الزبير، فيقول:

ألم تر أنّ الله أخزى مُجاشعاً إذا ضم أفواج الحجيج المعرفُ
ويوم منى نادت قريش بغدرهم ويوم الهدايا في المشاعر عُكفُ[٤]

(١) جرير، ديوان: ٢٠٧، ٢١٠.
(٢) المصدر نفسه: ١١٢.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧٥.
(٤) المصدر نفسه: ٤٦٠.

أمّا الشاعر الفرزدق، فيحتوي ديوانه على العديد من صور الحج ومشاهده، ففي قصيدة له في هجاء جرير يقول:

حلفت بربّ مكّة والمصلى و أعناق الهدي مقلدات[١]

ويهجو الشاعر الفرزدق الشاعر الطرمّاح الطائي، فيقول:

سألت حجيج المسلمين فلم أجد ذبيحة طائي لمن حج حلت[٢]

ويمدح الفرزدق الخليفة سليمان بن عبد الملك، فيقول: إنّ المسلمين نذروا أن يحجّوا حفاة ويصوموا سنتين إذا وُليَّ الخلافة، فيقول:

كم فيك إن ملكت يداك لنا يوماً نواصينا من النذر
من حَجّ حافيةٍ و صائمة سنتين أم أفيرخ زُعرِ[٣]

ويمدح الفرزدق الخليفة الأُموي عمر بن عبد العزيز ويريد الحج وزيارته في مكّة فيقول:

تريد معه الحجّ ابن ليلى كلاهما لصاحبه خير تُرجى فواضله
زيارة بيت الله وابن خليفة تحلب كفاه الندى وأناماله[٤]

ويمدح الفرزدق والي البصرة، الحكم بن أيوب بن أبي عقيل فيقول:

---

(١) همام بن غالب بن صعصعة الفرزدق، ديوان الفرزدق، ت. أكرم البستاني، بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ١: ١٠٨.
(٢) الفرزدق، ديوان ١: ١١٥.
(٣) المصدر نفسه ١: ٢٦٣.
(٤) المصدر نفسه ٢: ٨١.

حلفت بما حجّت قريش و نحرت غداة مضي العشر المجللة الهدلا
لقد أدركت كفاك نفس بعدما هويت ولم تثبت بها قدمٌ نعلا(١)

ولم تخل المشاعر من الفخر بين جرير والفرزدق، فقد التقى جرير والفرزدق بمنى وهما حاجان، فقال الفرزدق لجرير:

فإنّك لاقٍ بالمنازل من مِنىً فخاراً فخبرني بما أنت فاخرُ

فقال له جرير: «لبيك اللهم لبيك» فاستُحسن هذا الجواب من جرير وأعجب الناس برده(٢).

والملاحظ، أنّ بعض الولاة كانوا يتّخذون مواقف نتيجة لشعراء الغزل في الحجاز. فعندما وُلي خالد بن عبد الله القسري مكّة المكرّمة، في عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك، بلغه قول الشاعر:

يا حبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد: أمّا إنّهن لا يزاحمنّك بعد هذا، فأمر بالتفريق بين النساء والرجال في الطواف، فكان أوّل من فرّق بين الرجال والنساء في الطواف(٣).

وصوّر بعض الشعراء الأحداث السياسية التي حصلت في مواسم الحج، وأشاروا إلى الحُجاج في شعرهم، فعندما تغلّب أبو حمزة الخارجي على مكّة المُكرّمة في موسم حج عام ١٢٩ هـ، وفرّ واليها عبد الواحد، وتركها لأبي حمزة

(١) الفرزدق، ديوان ٢: ١٢٨.
(٢) الأصبهاني، الأغاني ٨: ٣٣ ـ ٣٤.
(٣) الأزرقي، أخبار مكّة ٢: ٢٠ ـ ٢١.

الخارجي، قال أحد الشعراء في مكّة:

زار الحـجيج عـصابة قـد خـالفوا ديـــن الإله فـفرّ عـبد الواحـد
تـرك الحـلائل والإمـارة هـارباً و مـضى يـخبط كـالبعير الشـارد[1]

● **الحج في النثر الإسلامي في عصر النبوّة والراشدين:**

كان للحجّ ومشاعره تأثير كبير في النثر الإسلامي منذ عصر النبوّة والخلفاء الراشدين إلى نهاية العصر الأُموي. وتمثّل ذلك في الخطب التي احتوت على العديد من معاني الحج وصوره.

وتشير كُتب السيرة، كسيرة ابن هشام، وكُتب التاريخ كتاريخ الطبري، وغيرها إلى خطب الرسول ﷺ عندما فتح مكّة وما ذكره من حرمتها، ثمّ براءته من المُشركين في حج عام ٩ من الهجرة، وحجّة الوداع وخطبته فيها.

فعندما فتح الرسول ﷺ مكّة في العام الثامن من الهجرة، أبطل مآثر قريش ما عدا سدانة البيت، أي خدمة الكعبة المُشرّفة، وسقاية الحج، فقال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكّة، وكان واقفاً على باب الكعبة:

« لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدعى، فهو تحت قدمي هاتين، إلّا سدانة البيت، وسقاية الحاج...»[2].

وبعد فتح مكّة أعاد الرسول ﷺ للبيت حرمته، ففي اليوم الثاني من فتح مكّة خطب الرسول ﷺ فبين حرمة مكّة، وكانت خزاعة قد عَدَت على رجل من هُذيل فقتلوه وهو مشرك، فخطب الرسول ﷺ قائلاً:

---

(١) محمّد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ت. محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، القاهرة: دار المعارف، د.ت ٧: ٣٧٥ ـ ٣٧٦. الأصبهاني، الأغاني ٢٣: ٢٢٩.

(٢) ابن هشام، السيرة ٤: ٥٤.

«يا أيها الناس، إنَّ الله حرّم مكّة يوم خلق السمٰوات والأرض، فهي حرام من حرام إلى يوم القيامة، فلا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيه دماً، ولا يعضد فيها شجراً، لم تحلل لأحد كان قبلي، ولا تحلّ لأحد يكون بعدي، ولم تحلل لي إلّا هذه الساعة، غضباً على أهلها، ألا، ثمّ قد رجعت كحرمتها بالأمس...»[١].

وفي السنة التاسعة من الهجرة النبويّة، أصبح الحج إلى مكّة يشمل عدداً كبيراً من عرب الجزيرة، وعُرف «بالحج الأكبر» وهي أوّل حجّة في الإسلام، وقد بعث الرسول ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ليُقيم للمسلمين حجّهم، وكان المشركون يحجّون أيضاً، ثمّ نزلت سورة براءة في نقض ما بين الرسول ﷺ وبين المُشركين من عهد. يقول تعالى: ﴿**بَرَاءَةٌ مِنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٢]. ويقول تعالى: ﴿**وَأَذَانٌ مِنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[٣].

ثمّ دعا الرسول ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: « **أخرج بهذه القصّة من صدر براءة، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، إنّه لا يدخل الجنّة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدّته**»، ففعل علي ذلك[٤].

وفي السنة العاشرة من الهجرة، قام الرسول ﷺ بحجّته التي عُرفت بحجّة الوداع، وكان يُحيط به عدد كبير من المسلمين العرب جاءوا من أنحاء الجزيرة.

---

(١) ابن هشام، السيرة ٤: ٥٨.

(٢) التوبة: الآية ١. وأُنظر: ابن هشام، السيرة ٤: ١٨٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣. وأُنظر: ابن هشام، السيرة ٤: ١٨٨.

(٤) ابن هشام، السيرة ٤: ١٩٠ ـ ١٩١. الطبري، تاريخ ٣: ١٢٢ ـ ١٢٣.

فحجّ بالناس وأراهم مناسكهم وأعلمهم سُنن حجّهم، وخطب فيهم خطبته المشهورة في يوم عرفة (يوم الحجّ الأكبر) وقال فيها:

« **إنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة بلدكم هذا**». وقال: « **إنّ الله قد حرّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا**»[١].

و يروي ابن هشام في السيرة النبويّة، أنّ رسول الله ﷺ حيث وقف بعرفة قال: «**هذا الموقف، للجبل الذي عليه، وكل عرفة موقف**. وقال حين وقف على قُزح صبيحة المزدلفة: **هذا الموقف وكل المزدلفة موقف**. ثمّ لما نحر بالمنحر بمنى قال: **هذا النحر، وكل منى منحر**. فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجّهم: من الموقف، ورمي الجمار، وطواف البيت، وما أحلّ لهم من حجّهم، وما حرّم عليهم، فكانت حجّة البلاغ، وحجّة الوداع، وذلك أنّ رسول الله ﷺ لم يحجّ بعدها»[٢].

ويروي الفاكهي في كتابه أخبار مكّة، عن عمرو بن يثربي الضمري قوله: «رأيت رسول الله ﷺ يخطب قبل التروية بيوم بعد الظهر، ويوم عرفة بعرفة حين زاغت الشمس على راحلته قبل الصلاة، والغد من يوم النحر بمنى بعد الظهر»[٣].

وكان رسول الله ﷺ في المدينة يصلّي صلاة عيد الأضحى، ثمّ يعظ الناس ويوصيهم ويأمرهم. يروي البخاري عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: «كان رسول‌الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلّى، فأوّل شيء يبدأ به الصلاة، ثمّ ينصرف، فيقوم مُقابل الناس ـ والناس جلوس على صفوفهم ـ فيعظهم ويوصيهم،

(١) ابن هشام، السيرة ٤: ٢٥١ ـ ٢٥٢. الطبري، تاريخ ٣: ١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) ابن هشام، السيرة ٤: ٢٥٣. الطبري، تاريخ ٣: ١٥٢.
(٣) الفاكهي، أخبار مكّة ٣: ١٣٢.

ويأمرهم. فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه أو يأمر بشيء أمر به، ثمّ ينصرف»[١].

والواقع أنّ الخطابة تطوّرت بعد ظهور الإسلام، فقد اتخذها الرسول ﷺ أداة للدعوة إلى الدين والوعظ والإرشاد، وكانت خطابة الرسول ﷺ متمّمة للذكر الحكيم، ومن ثمّ كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثمّ مواسم الحج[٢].

وتحتفظ كتب الحديث بما اتخذه الرسول ﷺ من أحكام الحج وتعاليمه وسننه، التي يسير عليها المسلمون إلى اليوم. ففي صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك بن أنس، ومسند الإمام أحمد، والمسند الصحيح لمسلم بن الحجاج، والسُنن لأبي داود، وغيرها من كُتب الحديث معلومات عن فريضة الحج، وشروطه، وأركانه، وواجباته، وسننه، ومحظوراته، والهدي والأضحية، وأنواع الحج والعمرة، وهي فرائض وتعليمات وآداب مبنيّة على القرآن وسُنّة الرسول محمد ﷺ. وهي تصوّر أدب الحج في عهد الرسول ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين وعصر الصحابة والتابعين.

وكان الخلفاء في العصر الراشدي يقيمون للناس حجّهم ويخطبون فيهم، وإذا لم يحجّوا يخطبون فيهم ويصلّون بهم في المدينة المنوّرة صلاة العيد. يقول عبدالله بن عباس: «شهدت العيد مع رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلّهم كانوا يصلّون قبل الخطبة»[٣].

وفي مواسم الحج كان الخُلفاء الراشدون والولاة يخطبون في اليوم السابع من ذي الحجّة بمكّة لتعليم الحاج مناسك الحج وسننه، وذلك اقتداء بما كان يفعله الرسول ﷺ، فقد خطب قبل التروية بيوم في حجّة الوداع، وعندما بعث علي بن أبي طالب في العام التاسع للهجرة، قام علي قبل التروية بيوم فعلّم

(١) محمّد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ت. عبد العزيز بن بار، بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ١: ١٠٥.

(٢) أُنظر هنا: شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ط ٦، القاهرة: دار المعارف، د.ت: ١٠٦ـ١٠٧

(٣) البخاري، صحيح ١: ٦.

المسلمين مناسكهم[١].

● **الحج في النثر الإسلامي في العصر الأُموي:**

كان الولاة والخلفاء يقومون بالخطبة يوم التروية ويوم عرفة في العصر الأموي (٤١ ـ ١٣٢ هـ). فعندما حجّ عتبة بن أبي سفيان بالناس سنة ٤١ هـ، خطب بعرفة فقال:

« أمّا بعد، أيُّها الناس فقد ولّيت هذا الأمر الذي يُضاعف الله فيه للمُحسن الأجر، وعلى المسيء فيه الوزر، ونحن على طريقة قصدنا، فأقبلوا العافية فينا ما قبلناها منكم، وأنا أسأل الله ـ تعالى ـ أن يعين كُلاّ على كلّ »[٢].

وعندما سيطر عبدالله بن الزبير على مكّة المُكرّمة (٦٤ ـ ٧٣ هـ)، كان يخطب في الناس يوم السابع من ذي الحجّة يعلّمهم المناسك[٣].

يروي أبو نعيم الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء عن محمّد بن عبدالله الثقفي قوله:

« شهدت خطبة ابن الزبير بالموسم، خرج علينا قبل التروية بيوم وهو محرم، فلبّى بأحسن تلبية سمعتها قط، ثمّ حمد الله وأثنىٰ عليه ثمّ قال:

أمّا بعد فإنّكم جئتم من آفاق شتّى وفوداً إلى الله عزّوجل، فحقّ على الله أن يكرم وفده. فمن كان جاء يطلب ما عند الله فإنّ طالب الله لا يخيب، فصدقوا قولكم بفعل، فإنّ ملاك القول الفعل، والنيّة النيّة القلوب القلوب، الله الله في أيامكم هذه، فإنّها أيام تُغفر فيها الذنوب. جئتم من آفاق شتّى في غير تجارة ولا طلب مال ولا دنيا، ترجون ما هنا. ثمّ لبّى ولبّى الناس، فما رأيت يوماً قط كان أكثر

(١) الفاكهي، أخبار مكّة ٣: ١٣١ ـ ١٣٢.
(٢) المصدر نفسه ٣: ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٣) المصدر نفسه ٣: ١٣٣.

باكياً من يومئذ»[١].

وكان الخلفاء الأُمويون يحجّون، فيخطبون يوم السابع من ذي الحجّة، ففي أول حجّة حجّها الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٥ هـ) في خلافته سنة ٧٥ هـ خطب في المسلمين في اليوم السابع من ذي الحجّة، وكان المسلمون قد أشكل عليهم الهلال لشهر ذي الحجة. يروي الفاكهي في أخبار مكّة، أنّ الخليفة عبدالملك خطب فحمد الله تعالى وأثنىٰ عليه ثمّ قال:

«أيُّها الناس، إنّ الله ـ عزّوجل ـ جعل أمر الأُمم من غيركم إلى أنفسهم يدبرون الأوان، ويقيمون الزمان، فيصرفون أعيادهم أنى شاءوا بظن وحسبان، ألا وإنَّ الله ـ عزّوجل ـ ملك عليكم أمركم، فجعل الأهلّة مواقيت الناس، ألا وإنَّ الله ـ عزّوجل ـ أخفى عليكم هذا ليبتليكم...»[٢].

وكان الولاة الأُمويون عندما يحجّون يخطبون في أهل مكّة، يقسمون المال عليهم وقت الضيق والحاجة، وإن لم يجدوا مالاً يستدينون من الحُجّاج. يروي الفاكهي، أنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي ـ عامل بني أُمية ـ خطب عندما قدم إلى مكّة المُكرّمة وهو والي الحج فقال في خطبته:

«يا أهل مكّة، إنّا قد أرملنا، ولكني سأبعث إليكم ـ إن شاء الله ـ فأنظرونا. فقام رجل فقال: لا أنظر الله من أنظرك، ولا عذر من عذرك، أمير العراقيين، وابن عظيم القريتين، ويقول: انظروني!! قال: فقال الحجّاج: صدقت، لا عَذَرَ الله من عذرني، وما أنظر من نظرني، ثمّ نزل، فتسلّف من وجوه اهل العراق ممن وافى الحجّ أربعين منهم، فجمع مالاً فقسّمه على أهل مكّة»[٣].

---

(١) أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط ٥، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ١: ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٢) الفاكهي، أخبار مكّة ٣: ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٣) المصدر نفسه ٣: ١٣٧ ـ ١٣٨.

وشهد العصر الأُموي ازدهار النثر الديني في مواسم الحجّ، والقائم على تفسير القرآن الكريم، وتوضيح السنّة النبويّة والفتوى في مناسك الحجّ والعُمرة، حيث انتعشت في مواسم الحجّ في العصر الأُموي العلوم الإسلامية كالتفسير والسنّة والفتوىٰ[١]. وتحتوي المصادر التاريخية على الكثير من أدب الحجّ المُتعلّق بهذه العلوم، وهو أدب نثري يتناول كلّ علم من هذه العلوم.

ولا يتّسع المجال هنا، للتوسّع في هذه العلوم وأبرز علمائها، ولكن ستُعطى أمثلة على كل علم من العلوم الدينية في مواسم الحجّ في العصر الأُموي، وأبرز من اشتهر فيه من الصحابة والتابعين.

ففي علم تفسير القرآن الكريم كان الصحابة والتابعون في مكّة المكرّمة مقصداً للحُجاج لأخذ التفسير ومن هؤلاء عبدالله بن العباس (ت ٦٨ هـ)، وعبدالله ابن الزبير (ت ٧٣ هـ)، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، (ت ٧٤ هـ).

وبرز من هؤلاء الصحابة في تفسير القرآن الكريم في مواسم الحجّ في العصر الأُموي الصحابي الجليل عبدالله بن عباس (ت ٦٨ هـ). حيث كان يخطب خلال المواسم في الحُجاج ويقرأ عليهم القرآن ويفسّره، يروي ابن سعد عن أبي وائل أنّه قال: «خطبنا ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة البقرة فجعل يقرأ ويفسّر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت»[٢].

وكان الحُجّاج وطلبة العلم يقدمون لمكّة المُكرّمة لأخذ التفسير من عبدالله

(١) أُنظر: إبراهيم بن عبد العزيز الجميح، الحياة العلمية في مواسم الحج في العصر الأُموي (٤١ ـ ١٣٢ هـ/ ٦٦١ ـ ٧٥٠)، دراسة قُدمت إلى مجلس البحث العلمي ومُعدّة للنشر، جدة: جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م: ١ ـ ١١١.

(٢) الأصبهاني، حلية الأولياء ١: ٣٢٤، وأُنظر أيضاً: يوسف بن عبدالله النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت ١: ١١٥.

ابن العباس، كما كان عبدالله بن العباس أيضاً مقصداً لعلماء المسلمين من اليمن وأنحاء الجزيرة والعراق، حيث يقدمون للحجّ ويستفيدون من علم ابن عباس بالسماع والمحاورة، ومن هؤلاء عالم اليمن طاوس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ)[١]. وعندما سُئل بأنّه ترك أكابر الصحابة ولزم ابن عباس قال: «إنّي رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ـ ﷺ إذا تدارؤوا [اختلفوا] في أمر صاروا إلى قول ابن عباس»[٢].

ومن التابعين الذين برزوا في تفسير القرآن الكريم مجاهد بن جبر المكّي (ت ١٠٤ هـ) وهو مقرئ ومفسّر، وقد استفاد من ابن عباس وأخذ عنه تفسير القرآن. يقول مجاهد: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كلّ آية منه وأسأله عنها»[٣].

وكانت السُنّة النبويّة من العلوم الدينية المزدهرة في مواسم الحجّ في العصر الأُموي. وقد استحوذت السُنّة النبويّة على اهتمام المسلمين في العصر الأُموي. وكانت مواسم الحج فرصة لدراسة السُنّة النبويّة وفهمها حيث يلتقي المسلمون، علماء وطلبةً بأصحاب الرسول ـ ﷺ ـ والتابعين في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة؛ لسؤالهم والأخذ منهم عن سُنّة رسول الله ـ ﷺ ـ عن الحجّ ومناسكه وسُننه.

واشتهر في مواسم الحجّ في العصر الأُموي عدد من أصحاب الرسول ﷺ والتابعين بفهم السنّة النبويّة وحفظها، ومن هؤلاء عبدالله بن العباس، وعبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ)، وعبدالله بن الزبير (ت ٧٣ هـ) وغيرهم. وكان يحدّثون في الحج ويجيبون عن أسئلة الحُجّاج اعتماداً على سنّة رسول الله ﷺ.

---

(١) أُنظر: محمّد بن سعد بن منيع البصري، الطبقات الكُبرى، بيروت: دار صادر، د.ت ٢: ٣٦٦ ـ ٣٦٧. و٥: ٥٤٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات ٢: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٣) الأصبهاني، حلية ٣: ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

وتحتوي كُتب الحديث والتاريخ والطبقات على الكثير من النثر الديني المتعلّق بسُنن الحجّ وأحكامه، الذي احتوته صدور الصحابة أخذاً عن رسول الله ﷺ.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان عبدالله بن عمرو بن العاص، مقصداً للحُجاج خلال مواسم الحج. حيث يقدمون للحج، وفي نفس الوقت يستمعون إليه يحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ. يقول عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ): إنّه جلس إلى عبدالله بن عمرو بن العاص ـ عن حجّ ـ وسمعه يحدّث عن رسول الله ﷺ[١]. وقد كتب عبدالله بن عمرو بن العاص الكثير من أحاديث الرسول ﷺ في صحيفة كان يسميها «الصادقة»[٢].

ومن تابعي المدينة الذين برزوا في فهم سُنّة الرسول ﷺ وحدّثوا بها في مواسم الحجّ في العصر الأُموي، سعيد بن المسيب (ت ٩٤ هـ)، وأبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥ هـ)، والقاسم بن محمّد بن أبي بكر (١٠٨ هـ).

ومن تابعي مكّة المكرّمة الذين برزوا في فهم السنّة النبويّة، وكانوا مقصداً للحُجاج عمرو بن دينار (ت ١٢٦ هـ).[٣].

كما نصح عالم اليمن طاوس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ) ابنه إذا قدم لمكّة أن يلزم عمرو بن دينار حيث قال له: «إذا قدمت مكّة فعليك بعمرو بن دينار...»[٤].

وفي الفتوىٰ في مواسم الحجّ في العصر الأُموي، اشتهر بعض الصحابة

(١) القرطبي، جامع ٢: ١٣٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات ٤: ٢٦٢.

(٣) محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام (١٢١ ـ ١٤٠ هـ)، ت. عمر عبد السلام التدمري، ط ١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.: ١٨٨.

(٤) ابن سعد، الطبقات ٥: ٤٧٩.

والتابعين في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة بالفتوى، وكانوا مقصداً للحجّاج حيث يفتوهم ويبينون لهم مناسك الحجّ والعُمرة.

ومن الصحابة الذين اشتهروا بالفتوى عبدالله بن العباس، وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر بن الخطاب. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كان عبدالله بن الزبير يفتي المسلمين خلال مواسم الحج، فعندما صُرع معبد بن حزابة المخزومي وهو في طريقه إلى الحجّ، أفتاه عبدالله بن الزبير: «أن يبدأ بما لابدّ منه ويفتدي، ثمّ يجعلها عُمرة، ويحجّ عاماً قابلاً ويهدي»[١].

واشتهر من تابعي الصحابة في الفتوى عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥ هـ) وإليه انتهت فتوى أهل مكّة المكرّمة في زمانه[٢]. ولقد وصلت شهرة عطاء بن أبي رباح الآفاق حتى أنّه ما قال شيئاً بالحجاز إلّا وقبل منه[٣]. وترتّب على شهرته المبنية على معرفته بأحكام الحجّ ومناسكه، أن قدر الخلفاء الأُمويون له ذلك. فقد كان الخُلفاء الأُمويون في تلك الفترة يأمرون في الحاجّ صائحاً يصيح بأن لا يفتي الناس إلّا عطاء بن أبي رباح[٤].

خاتمة:

كان الهدف من هذه الدراسة هو محاولة إعطاء صورة عن أدب الحجّ، شعراً ونثراً في الحجاز والجزيرة العربية من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأُموي(١٣٢هـ).

(١) أُنظر: محمّد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، ٢: ٢٢١.

(٢) ابن سعد، الطبقات ٥: ٤٧٠.

(٣) أُنظر: يعقوب بن سفيان البسوي، المعرفة والتاريخ، ت. أكرم ضياء العمري، ط ٨، المدينة المنوّرة: مكتبة الدار، ١٤١٠هـ. ٢: ١٨.

(٤) الفاكهي، أخبار مكّة ٢: ٣٤٧.

وقد بيّنت الدراسة في بدايتها معنى الحجّ في اللغة العربية والدين. فوضّحت أنّ الحجّ كان يعني القصد والزيارة، ثمّ تطوّر ليصبح مفهومه زيارة البيت الحرام وأداء نسك الحجّ في المشاعر المقدّسة على أساس دين إبراهيم عليه السلام.

ثمّ وضّحت الدراسة ما طرأ على الحجّ من تغير بعد الإسلام، حيث أبطل الإسلام عادات العرب وتقاليدهم عن الحج، فأصبح الحجّ ركناً من أركان الإسلام الخمسة، وفريضة على المسلمين من استطاع إليه سبيلاً.

و وضّحت الدراسة أنّ أدب الحج في الجاهلية يشمل الشعر والنثر والأمثال. ففي الشعر الجاهلي ذكر العرب البيت الحرام وسقاية الحاج والمشاعر، كمنى وعرفات ومزدلفة، وأشاروا إلى بعض مشاهد الحج كالإبل التي تحمل الحجّاج قادمين لمكّة لأداء الحج، وكرمي الجِمار. وغيرها من مشاهد الحجّ وأيامه.

وفي النثر عبّر العرب قبل الإسلام عن فخرهم وسيادتهم، وحرمة البيت الذي يلونه، وعن حفر بئر زمزم وسقايتهم للحجيج ورفادتهم له.

وفي أمثالهم كان الحجّ عنصراً مؤثراً، فذكروه في أمثالهم التي ما زالت متداولة إلى اليوم.

ثمّ وضّحت الدراسة أدب الحجّ في الحجاز والجزيرة العربية في العصر الإسلامي. فتناولت أدب الحجّ المتمثّل في الشعر والنثر في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وعصر الخُلفاء الراشدين والعصر الأُموي إلى نهايته.

ففي عصر الرسول صلى الله عليه وآله، ذكر الشُعراء العرب الحج في شعرهم، حيث تناولوا القسم بالله سبحانه وتعالى، رب الإبل القاصدة بالحجّاج منى لأداء مناسك الحج، والحرم، والجمرة الكبرى.

وبيّنت الدراسة تطوّر أدب الحج المُتمثّل في الشعر في العصر الأُموي، وذلك لتغيرات اجتماعية طرأت على الحياة في الحجاز. فذكرت شُعراء الحجاز وشعرهم الغزلي الذي يصفون فيه الحج ومشاعره ومشاهده، كعرفة ومنى ورمي الجمرات

والطواف، وما يحثّ في هذه المشاهد وغيرها من لقاء وفراق ووصل وهجر.

وأشارت إلى شُعراء النقائض كجرير والفرزدق وما يحتويه شعرهما ممّا يتعلّق بالحج ومناسكه، كمنى والنعم المقلّدة، والطواف واستلام الحجر الأسود وغيرها من صور الحجّ ومشاهده.

ثمّ تناولت الدراسة الحج في النثر الإسلامي في عصر النبوّة والراشدين، فبينت احتواء هذا النثر على معاني الحج الإسلامية، التي أرساها القرآن الكريم وأكّدها الرسول ﷺ، فعندما فتح الرسول ﷺ مكّة أبطل عادات العرب الجاهلية، ولم يبقِ إلّا على سقاية الحاج وسدانة البيت، ثمّ حرمة البيت الحرام.

وفي أوّل حجّة في الإسلام في العام التاسع للهجرة، أبطل الرسول ﷺ عادات العرب الدينية عن الحج، فأمر علي بن أبي طالب، أن يقرأ على الناس في منى سورة براءة، التي يتبرأ فيها المسلمون من المشركين، وأن يعلمهم بأنّه لا يدخل الجنّة كافر، ولا يحجّ بعد هذا العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفي حجّة الوداع أكّد الرسول ﷺ حرمة البيت الحرام ودماء المسلمين، وبيّن للناس مناسكهم، واعلمهم ما فرض الله عليهم في حجّهم، من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والطواف بالبيت وما يحلُ وما يُحرم.

واستمر الخُلفاء الراشدون يخطبون للمسلمين إذا حجّوا، في منى في اليوم التاسع، وإذا لم يحجّوا يخطبون للمسلمين في المدينة المُنوّرة بعد صلاة عيد الأضحىٰ. وكذلك فعل العمال والولاة.

وبيّنت الدراسة أنّ الخلفاء الأُمويين وولاتهم على مكّة، كانوا يخطبون في الناس في اليوم السابع ويعلّمون الناس مناسك الحجّ.

كما أوضحت الدراسة ازدهار النثر الديني المُتمثل في الخطب الدينية والمجالس العلميّة في العصر الأُموي، والذي شمل تفسير القرآن الكريم وتوضيح السُنّة النبويّة والافتاء في أحكام الحج وسننه. وهو أدب للحج يعكس تطوّر

الحياة العلمية وازدهارها في مواسم الحج في العصر الأُموي.

وهكذا، إذن، كان أدب الحج في الحجاز والجزيرة العربية، منذ عصر ما قبل الإسلام إلى نهاية العصر الأُموي، زاخراً وغنياً ومتنوعاً نظماً ونثراً. وتمثّل فيه بعض ما ظهر من أسرار وحكم وفوائد الحج، بل كان فيه منفعة من عدّة منافع عن الحج ذكرها الله في محكم كتابه حيث يقول: ﴿**وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[1].

(١) سورة الحج: الآية ٢٧.